الاسلام .. في البلاد الحمراء

الشحاذون في الاتحاد السوفياتي ليسوا من المسلمين !

نجحت ((كل شيء)) في الحصول على حق نشر مقالات ادوار سابليه المحرر السياسي لجريدة ((ليموند)) الفرنسية عن الاسلام في الاتحاد السوفياتي !..

عرضت مجلة ((لايف)) الامريكية على سابليه عشرة الاف دولار لكي تحصل على حق نشر مقالاته باللغة الانجليزية ولكنه رفض !.

استطاع احمد طلعت مدير مكتب ((كل شيء)) في القاهرة ان يقنع سابليه بترجمة مقالاته الى اللغة العربية ..

ان ((كل شيء)) تحقق بنشرها هذه المقالات نصرا صحفيا عجزت عن تحقيقه مجلة ((لايف)) ..

ان هذه المقالات التي ستبدأ ((كل شيء)) في نشرها ابتداء من هذا العدد هي بساط الريح الذي سيقطع بالقارىء العربي الاف الاميال داخل بلاد ((الستار الحديدي)) .

لم يعد الاتحاد السوفياتي بارض الغموض ولا حتى بالمنطقة المحرمة على الاجانب التي ظلت طوال اعوام كثيرة تثير فضول الغرب ، فقد تفتحت ابواب الستار الحديدي منذ وفاة ستالين وسافر الى روسيا عدد من الساسة والصحفيين والفنانين ، يزرعون ارضها شمالا وجنوبا ، ويرتادون مجاهلها شرقا وغربا ! .

وكان من بين رجال الصحافة الذين زاروا الاتحاد السوفياتي الكاتب المعروف ـ ادوار سابليه ـ المحرر السياسي لجريدة « ليموند » الفرنسية ، فوافى صحيفته بسلسلة من التحقيقات التي قام بها في مختلف الجمهوريات الاسلامية السوفياتية والتي تعتبر اصدق صورة عن الاسلام داخل الستار الحديدي ..

الامبراطورية الاسلامية

كان الاسلام يظهر حتى نهاية الحرب الاخيرة في مصوراتنا الجغرافية شركة مقسمة بين مختلف الدول الاوروبية العظمى ، فقد كان المسلمون من المحيط الاطلنطي الى بحر اليابان يعيشون في اراضي مترامية شاسعة ، ويقرب تعدادهم من اربعمائة مليون نسمة ، كانوا جميعا خاضعين طواعية او كرها لوصاية « الكفرة » الذين لا يؤمنون بدينهم الحنيف !.

ومنذ ذلك العهد حدثت ثورة حقيقية ،فقد تخلت ايطاليا وهولندا وبريطانيا عن ممتلكاتها الاسلامية ، واليوم تعاني فرنسا الامرين من حربها للمحافظة على ممتلكاتها الاسلامية ، وتقف في صراع لا يعلم الا الله كيف ولا متى ينتهي !!..

بعد هذا لم يعد من الامبراطورية الاسلامية الواقعة تحت وطأة الاغتراب الا امبراطورية واحدة نعني بها امبراطورية الاتحاد السوفياتي التي حلت فيها المطرقة والمنجل مكان الهلال الاخضر .

وارض الاسلام في نظر الروس الذين يشرفون عليها تعتبر ذات اهمية قصوى ، ولعله من العسير ان نحدد بالضبط تعداد المسلمين داخل الحدود السوفياتية ، اذ ان الاحصائية الوحيدة التي يمكن الاستناد اليها ترجع الى عهد القياصرة عام ١٨٩٧ ، وقد دلت وقتذاك على وجود نحو خمسة عشر مليونا من المسلمين ، ثم اندلعت نيران الثورة البلشفية ، فلم تعد الاديان عناصر ممزة بين السكان ،اذ اجريت احصائيات بعد ذلك خلال عامي ١٩٢٦ ، ١٩٣٩ فلم يراع الدين فيها ، وانما روعيت التبعية العنصرية ، وانضح من هاتين الاحصائيتين ان عدد المسلمين قد صار على التوالي ٢١٠١٨ مليونا في مختلف انحاء الامبراطورية السوفياتية .

على هذا الاساس، وعلى هدى هذه الاحصائيات يسود الاعتقاد بان عدد المسلمين في الوقت الحاضر ـ ١٩٥٧ ـ يبلغ نحو ٢٥ مليون نسمة ، اي بعبارة اخرى تبلغ نسبتهم ١٢ بالمئة من مجموع عدد الرعايا السوفيات !.

جماهير اسلامية في الاتحاد السوفياتي تحتفل باحدى المناسبات الوطنية ..

هؤلاء السكان المسلمون يعتبرون في نظر المسئولين السوفيات مشكلة دقيقة قائمة بذاتها ، اذ ان هؤلاء يعيشون جلهم ، ان لم يكن كلهم ، على الحدود الفاصلة بين اسيا الوسطى والقوقاز من ناحية ، وبين الهند وباكستان وافغانستان وايران من ناحية اخرى ، وهم يكونون جماعات متجانسة ذات صلة بالعالم الخارجي منذ عهد بعيد وتربطه بسائر المسلمين الذين يعيشون فيما وراء الحدود باواصر تقليدية ودينية وتاريخية ..

وعلى هذا الاساس كان المسلمون ، شانهم في ذلك شان اليهود والكاثوليك ، مضطهدين في عهد القياصرة ، الى ان اشتعلت الثورة الروسية فاصبح هؤلاء جميعا تحت مراقبة دقيقة من السلطات الثورية !.

فمن ناحية الجنس واللغة والدين يعتبر سكان الاتحاد السوفياتي اخوة للمسلمين الذين يعيشون في الاراضي المجاورة ، وهم الى جانب ذلك ينتمون ـ اربعة اخماسهم ـ الى العنصر الطوراني كالاتراك العثمانيين ، والخمس الباقي اما من الايرانيين ، واما من التاديجيك كاهل ايران وافغانستان سواء بسواء !.

والى جانب اولئك وهؤلاء توجد قلة تنتمي الى اصل مغولي او صيني ، ويتضح من ذلك انهم يتصلون بروابط وثيقة بسائر السكان المسلمين الذين يعيشون فيما وراء الحدود المجاورة !.

هذا الى ان الاراضي الاسلامية تحوي في باطنها ثروات معدنية ضخمة على رأسها الذهب الاسود الذي يبدو كما لو كان هبة من الله الى عباده ، ناهيك عن القطن ، ومناجم الفحم ، والرصاص . وغير ذلك من المساقات الشاسعة من الاراضي البكر التي ما زالت تنتظر يد الاصلاح لتزدهر وتنبت نباتا حسنا .

تراث القياصرة

ورث السوفييت عن القياصرة الروس متاعبهم ومشاكلهم الناجمة عن الخوف والحذر من الشعوب الاسلامية المجاورة لحدود بلادهم من اسياء ونعني بهم التتار والمغول، وكانت نهاية المطاف من صراع الجبابرة، استيلاء الروس على مدينة « سمرقند » والانتقام من احفاد « تيمورلنك » الذين احرق جدهم الاكبر مدينة موسكو في الماضي ، واعتبر السوفييت الشعوب الاسلامية التي تعيش في اراضيه بمثابة غطاء عسكري استراتيجي يحمي حدوده الجنوبية من اسيا ، الى ان تطورت السياسة الروسية خلال القرن الماضي، عندما اخذت جحافل الروس تنطلق نحو المحيط الهادي ، ونحو القوقاز ، بينما كانت الديبلوماسية القيصرية تعمل جاهدة لتنتزعها من بريطانيا الامارات الواقعة في شمال الهند !..

فلا زالت الادارة السوفياتية في مدن هذه المناطق تتسم بالطابع الاستعماري ، وترسل حكومة موسكو الى هذه الجهات كثير من ابناء روسيا لاستعمارها وذلك بغية تطبيق سياسة اندماج بين هؤلاء الروس وبين السكان المسلمين ، حتى يتسنى لقبضة روسيا ان تنطبق على الاسلام .

وقد احترم الروس الانظمة المحلية والطقوس الدينية والعادات والتقاليد الاسلامية في هذه البلاد ، وكان من نتيجة ذلك ان تقرب الاقطاعيون من موسكو فاوفدوا ابناءهم للخدمة في جيش القياصرة وانتهزوا فرصة تأييد سادتهم الروس ازيادة اعتصار دماء مواطنيهم وبني دينهم ، ولا غرو اذن اذا كان الاقطاع في كل البلاد حليف الاستعمار وصنيعته .

وفي اوائل عهد الثورة الروسية لم يجد البلشفيك سبيلا للابقاء على الانظمة الا عن طريق استخدام القوة ، وما زال الرجال الطاعنون في السن يذكرون هذه الفترة الرهيبة ، وما اقترنت به من مصادرات للارزاق ، ومجاعات اخذت بخناق السكان ، واستمرت هذه الفترة طوال عشر سنوات ما بين ١٩٢٨ ـ ١٩٣٨ تتسم بطابع من الارهاب الشديد ، فكم من زعيم ديني او اقطاعي اختفى من عالم الوجود ، اما في مجاهل سيبيريا واما بالاعدام .

وعندئذ اصيبت الديانة الاسلامية في الصميم ، شانها شان بقية الديانات الاخرى ، ثم ما لبث الحال ان تغير بعد ذلك ، فقد لجأ الروس الى وسائل اخرى اقل ارهابا وامض ... وكانت النتيجة ان اصبحت الاراضي الاسلامية التي كانت حراما على الاجانب لا يستطيعون دخولها الا بعد جهد ، اصبحت هذه الاراضي محل تفاخر الروس وزهوهم ! فما لبثوا ان اتخذوا منها نموذجا يعرضونه على المراقبين الاجانب ويتباهون بما وصلوا اليه من نتائج فيها !.

((يتبع في العدد القادم))